بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام والاعتدال

جمال الدين سليمانى كياسرى-٠٩١٩٣٥٤٠٨١٨-jamaleddin٥٨@gmail.com

المخلص

هذه المقالة بصدد دراسة مكانة الاعتدال فى الإسلام. تبدأ المقالة ببيان مقدّمة لتبيين المسألة. ثمّ تستمرّ الدراسة فى فصلين: الأول إشارة إلى اتهام الإسلام بالتطرّف والتشدّد والدواعى الكامنة خلف هذا الاتهام. والثانى دراسة منزلة الاعتدال فى الآيات والأحاديث، وستبيّن أنّ الإسلام قد اهتمّ بمسألة الاعتدال اهتماماً بالغاً. وفى النهاية تجيب عن بعض الإشكاليات المطروحة فى المقام.

المفردات الرئيسية

الإسلام- الاعتدال- التطرّف- الإفراط والتفريط- الجهاد- الحدود- الإرهاب

التمهيد

إحدى خصائص هذا العصر والتى من أهمّها هى استخفاف الألفاظ و تفريغها عن معانيها. فنستطيع أن نسمّى هذا العصر بعصر المحاولة الأكثرية لفصل الكلمات عن حقائقها بالدواعى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، الأمر الذى أدّى بدوره إلى حلول المشاكل فى المجتمعات المعاصرة.

وقد ذبحت فى هذه الخطّة مفردات أنيقة وانسلخت عن معانيها بمعنى الكلمة؛ كالحريّة وحقوق الإنسان وكرامته والعدالة والأخوّة والسّلم وعشرات الألفاظ الأخرى.

ففى الواقع لم يستطع الإنسان فى أىّ زمان كما استطاع اليوم أن يظلم ويجور على الأقلام والألسنة وذالک بفضل وسائل الإعلام والتقنيات الحديثة. ومن ثمّ استطاع أن يمنع حشداً كبيراً من أبناء نوعه من أبسط الحقوق. نرى اليوم أنّ أصحاب القوّة والمال يستخدمون شعار حقوق البشر فى سبيل سلب الحدّ الأعلى من حقوق البشر. ويهتكون حرمات الناس ويسحقون كرامتهم ثمّ يهتفون بالكرامة الذاتيّة للبشر. ليس هذا إلّا لأنّهم عرفوا أنّ هدم هذه القيم المتعالية المنبثقة من الفطرة والتى يشترک فيها الجميع لا يمكن إلّا برفعها والهتاف بها بأعلى صوت. نعم، إنّ ما تنادى به ضمائر الناس ويدعو إليه العقل خير أداة لخدعتهم واستغلال طاقاتهم وإمكانياتهم. واكتسب الإنسان المعاصر براعةً واختصاصاً عالياً فى هذا المجال. يكفينا أن نعلم أنّه وبفضل الإعلام المتطوّر يمكن أن تُستخدم مفردة ويُراد منها عكس معنى المفردة تماماً. وعندنا نماذج عينيّة متعددة من هذه الواقع المرّ. فنرى اليوم فى ظلّ هذه الإبداعيّة!! أنّ الجمهورية الإسلامية- وهى تنادى بالعدالة العالمية وحماية المظلومين ولها القدح المُعَلّى فى نضال الظلم الدولى- تُتّهم عند الرأى العام بتأييد الإرهاب والحرب والعنف وعدائها لحقوق الإنسان وكرامته وهى تحاول الهيمنة على خارج حدودها والكثيرون يتلقّونها بالقبول. وفى المقابل تظهر أمريكا- وهى تجلّى الشيطان فى جميع الرذائل والمعاصى- وكأنّها أكبر مؤيد لحقوق الإنسان والتى تنشر العدالة والسلم والديمقراطية للبلدان الفاقدة لها ويُتلقّى أيضاً بالقبول. هذه الخطّة تعتبر حزب الله فى لبنان والحماس فى فلسطين وهما يدافعان عن النفس والعرض والأرض أمام العدوان، إرهابيين، وأما إسرائيل والجميع يعرفها، سلطة مؤيدة للسلام ومعادية للحرب والعنف وليس اعتداؤها على الشعوب الإسلامية إلّا دفاعاً عن النفس.

إنسان اليوم جعل دور الله سبحانه فى حياته ضئيلاً وسار إلى علمنة الحياة ومن هنا أصبح ميزاناً للحسن والسيئ، بمعنى أنّ الحسن ما يلائم إرادته والسيئ بخلافه. ثمّ عرّف الإنسان بالإنسان الغربىّ والإنسان الغربى عبارة عن مجموعة من أصحاب القوّة والثروة اكتسبوا ما يتميّزون به فى النظام الرأسماليّة الفاسدة. فأصبح هؤلاء الملأ يميّزون بين الطيّب والخبيث والجيّد والردئ. أمّا الآخرون فلا يُعتدّ بهم أبداً حتّى فى الدفاع عن أنفسهم. فالمعيار فى تمييز الإرهابى عن غيره ومؤيّد الصلح والسلم عن معارضه ليس إلّا هؤلاء القليلون المحتلّون المقاعد الرئيسية فى المنظّمات الإقليمية والدولية. على سبيل المثال لو أنّ أحداً ألقى القنبلة الذّرّية على مدينة وقتل عشرات الآلاف فى كم دقيقة أو استهدف أحد الطائرة المدنية وأسقطها وقتل جميع الركّاب البالغ عددهم ٢٩٠ شخصاً، وكان ذلک فى سبيل مصالحهم، لا يعتبر هؤلاء الجناة إرهابيين ومعارضى السلم العالمى، بل من مؤيّدى الصلح والسلام ويُعاملون بالترحيب والتقدير. وويل لمن سقط من عين رعايتهم، فإنّه إرهابى ومعاند لحقوق الإنسان وكرامته ولو فعل ما فعل فى سبيل تطهير نفسه.

أحد هذه المفردات الذى له الحظّ الوافر فى هذه الصفحة السوداء، الاعتدال. ماأجمل هذه الكلمة للعيون وما أجلّها فى القلوب! من لا يعشقها ولا يريدها؟ الجميع يهتفون بالاعتدال، لكنّ الكلام كلّه فى معناها. هنا تظهر المشكلة وتتعقّد

المسألة. فنرى الجميع يفسّرونه حسب رؤيتهم أو حسب ما تشتهيه أهوائهم وأنفسهم، ثمّ يحكمون على من لا يسير على ذاك المنهج بالتطرّف.

فالأديان السماويّة أيضاً شملتهم هذه القاعدة، فحُكم عليها بالتطرّف أو بالاعتدال حسب الرؤى أو الدواعى. وقد وُجّه هذا العنوان-التطرّف- إلى الإسلام أكثر من غيره من الديانات، فوصل الأمر إلى أنّ البعض يعتبر الإسلام دين العنف والتطرّف والإرهاب وضدّ السّلم والسماحة والمحبة. فينبغى لنا أن ندرس علاقة الإسلام بالإفراط والتطرّف ومنزلة الاعتدال فيه كى تتّضح حقيقة الأمر.

الفصل الأول: الإسلام، الإفراط والتطرّف؟؟

أحد المفردات التى يعتبر اليوم هنا وهناك من خصائص الإسلام، التشدّد والراديكالية. فالإعلان الغربى اليوم يدّعى أنّ التطرّف بتجلّياته الفردية والاجتماعية لا مُفرز له إلّا الإسلام. هذه الرؤية تعتبر المعتنقين بالإسلام متطرّفين يقومون بالأعمال اللاإنسانية تمسكاً بمبادئهم الدينية. ويقولون إنّ الإسلام خير أرضيّة لوحدة الدين والعنف والإرهاب. يبدو أنّ توجيه التطرّف إلى الإسلام ينشأ من الخلاف الموجود بين الإيدئولوجية الإسلامية والحضارة الحديثة، أكثر ممّا يتأثر بالتعاليم الموجودة فى هذا الدين، حيث إنّ الحضارة الحديثة تسعى لبثّ الأصول المقبولة لديها فى مجال الإنسانيات إلى جميع المجتمعات وإزالة الأفكار المناقضة لها. فهذه الحضارة جعلت الليبرالية والنسويّة والديمقراطية و...-كلها بتعاريفها الغربية- أصولاً ثابتة للحياة الإنسانية. وهى نفسها معيار للاعتدال والوسطية. فبالنتيجة لو أنّ الإسلام لم يقبل الحرية المطلقة وحتى فى ساحة الدين ولم يُحذف كثير من الأحكام المتعلقة بالحدود من تشريعاته، فهو متطرّف. وكذا لو أنّ الإسلام لم يعترف بمساواة حقوق الرجل والمرأة بمفهومه الغربى. وأيضاً لو أنّ التشريعات المتعلقة بالجهاد والقتال لم تُحذف وكذا... وكذا... ففى جميع هذه الصور، فالإسلام خارج عن حدود الوسطية ولا مفرّ له إلّا الرجوع إلى المفاهيم المقترحة من الغرب.

الفصل الثانى: ماذا يقول الإسلام؟

دراسة الآيات والاحاديث تبيّن لنا أنّ الإسلام بنى تعاليمه على الاعتدال الكامل بحيث يمكن القول أنّ المرجع فى جميع قضاياه الأخلاقية والفقهية، هو الاعتدال. وقد استطاع الإسلام بهذه الإستراتيجيّة الناجحة أن ينسّق بين التكوين والتشريع وبالتالى نجح فى إيصال الإنسان إلى غايته فى حياته وسعادته. فاستراتيجيّة الإسلام، إستراتيجية بعيدة عن طرفى الإفراط والتفريط. ولا بأس بالإشارة إلى بعض المحاور التى تتعلّق بالمسألة استعانة بالآيات والأحاديث.

وينبغى أن نذكّر قبل ذلك أنّ الوسطيّة فى الإسلام تقابل الانحراف والزيغ، فالوسطيّة تعنى الطريق المستقيم والصحيح غير المعوجّ. فالذى وقع فى الطريق المستقيم واهتدى إليه، قد يسرع فى حركته وقد يبطئ فيها، فلاضير فيهما بل يُرجّح الإسراع هنا، لأنّه أوصل إلى الغاية.

ثم نقول يمكن دراسة النصوص المتعلقة بالموضوع على نحوين:

الأول: أن تستخرج النصوص المشتملة على المفردات المؤدّية معنى الاعتدال والوسطيّة.

الثانى: التّأمّل فى تعاليم الإسلام فى الأبعاد المختلفة لنرى بعد ذلك هل إنّ الإسلام بنيت تعاليمه على الوسطية أم لا؟

فنحن نتطرّق إلى المسألة فى مقامين:

الأوّل: دراسة المجموعة الأولى من النصوص تهدينا إلى النقاط التالية:

١-ايجاد نظام التكوين و التشريع على اساس الاعتدال

إيدئولوجيّة الإسلام تؤكّد على أنّ النظام الكونى فى تكوينه وتشريعه قائم على أساس الوسطية التّامّة من دون زيغ واعوجاج وانحراف إلى الأطراف. فسُمّى هذا النظام بالنظام الأحسن وقد ابتعد عن أىّ نوع من الفتور والخلل. قال الله تعالى:

«وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ»[1]

---

[1] -سورة انعام، ٣٨

يعتقد العلامة الطباطبايى فى بيان المراد من الكتاب فى الآية أنّ الكتاب إمّا هو اللوح المحفوظ، وهو الذي يسميه الله سبحانه في موارد من كلامه كتاباً مكتوباً فيه كل شيء مما كان وما يكون وما هو كائن، فيكون المعنى أن هذه النظامات الأممية المماثلة لنظام الإنسانية كان من الواجب في عناية الله سبحانه أن يبني عليها خلقة الأنواع الحيوانية فلا يعود خلقها عبثاً ولا يذهب وجودها سدىً ولا تكون هذه الأنواع بمقدار ما لها من لياقة القبول ممنوعة من موهبة الكمال. وإمّا المقصود منه هو القرآن الكريم و قد سمّاه الله كتاباً في مواضع من كلامه، فيكون المعنى أن القرآن المجيد لما كان كتاب هداية يهدي إلى صراط مستقيم على أساس بيان حقائق المعارف التي لا غنى عن بيانها في الإرشاد إلى صريح الحق ومحض الحقيقة لم يفرط فيه في بيان كل ما يتوقف على معرفته سعادة الناس في دنياهم وآخرتهم كما قال تعالى: «وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ»[1]

ثمّ يقول العلامة إنّ من الممكن أن يشار في الآية إلى كلا المعنيين فيراد في الكتاب مطلق الكتاب ويكون المعنى أن الله سبحانه لا يفرط فيما يكتب من شيء في كتاب التكوين وفي كتابه الذي هو كلامه الموحى إلى الناس.[2]

يقول السيد بن قطب فى تفسير قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ»[3]

> **«إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة، الكاملة الشكل والوظيفة، أمر يستحق التدبر الطويل، والحب لربه الكريم، الذي أكرمه بهذه الخلقة. فقد كان قادراً أن يركبه في أية صورة أخرى يشاؤها. فاختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة. وإن الإنسان لمخلوق جميل التكوين، سوي الخلقة، معتدل التصميم، وإن الجمال والسواء والاعتدال لتبدو في تكوينه الجسدي، وفي تكوينه العقلي، وفي تكوينه الروحي سواء، وهي تتناسق في كيانه في جمال واستواء! وهناك مؤلفات كاملة في وصف كمال التكوين الإنساني العضوي ودقته وإحكامه.»[4]**

ونجد فى القرآن آيات متعددة تؤكّد على هذه الحقيقة كقوله تعالى:

> **«ما تَرى في خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ»[5]**
>
> **«صُنْعَ اللَّهِ الَّذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ»[6]**
>
> **«كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكيمٍ خَبيرٍ»[7]**
>
> **«وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبيلِ وَمِنْها جائِرٌ»[8]**

٢-الأمر بالاعتدال الشامل والنهى عن جميع أنحاء الإسراف

إنّ الله تعالى يكلّف الإنسان بالوسطية الشاملة. قال تعالى:

> **«وَ اقْصِدْ في مَشْيِكَ»[9]**

---

[1] -سورة النحل، ٨٩

[2] - الميزان فى تفسير القرآن، ج٧، ص: ٨٢

[3] -سورة الانفطار، ٦-٧

[4] -سيد بن قطب بن إبراهيم، فى ظلال القرآن، ج٦، ص٣٨٤٨

[5] -سورة الملک، ٣-٤

[6] -سورة النمل، ٨٨

[7] -سورة هود، ١

[8] -سورة النحل، ٩

[9] -سورة لقمان، ١٩

فإنّ المقصود من المشى فى الآية هو الدرب الذى يسير عليه الإنسان فى جميع مجالات حياته. يقول العلامه الطباطبايى فى تبيين الآية:

«-وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ- فإنه كناية عن أخذ وسط الاعتدال في مسير الحياة،»[1]

وفى آية أخرى:

«وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِين»[2]

والأحاديث المأثورة تعيّن حدود الإسراف المنهيّ عنه. فقد سئل الإمام الصادق(ع) عن أدنى الإسراف. فقال(ع):
«ابْتَذَالُكَ ثَوْبَ صَوْنِكَ وَإِهْرَاقُكَ فَضْلَ إِنَائِكَ وَأَكْلُكَ التَّمْرَ وَرَمْيَكَ النَّوَى هَاهُنَا وَهَاهُنَا»[3]

٣-الوسطية الشاملة من خصائص عباد الرحمن

إنّ الاعتدال واجتناب الافراط والتفريط من أهمّ خصائص عباد الرحمن. فالجزء الأخير من سورة الفرقان يعدّ خصائص عباد الرحمن ويذكر من جملتها أن سيرتهم فى الإنفاق الاعتدال والوسطية.

«وَ عِبادُ الرَّحْمنِ الَّذين.... وَ الَّذينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً»[4]
يقول السيد قطب فى تفسيرهذه الآية:
«وهذه سمة الإسلام التي يحققها في حياة الأفراد والجماعات ويتجه إليها في التربية والتشريع، يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال. والمسلم- مع اعتراف الإسلام بالملكية الفردية المقيدة- ليس حراً في إنفاق أمواله الخاصة كما يشاء- كما هو الحال في النظام الرأسمالي، وعند الأمم التي لا يحكم التشريع الإلهي حياتها في كل ميدان. إنما هو مقيد بالتوسط في الأمرين الإسراف والتقتير. فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع، والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله، فالمال أداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية. والإسراف والتقتير يحدثان اختلالاً في المحيط الاجتماعي والمجال الاقتصادي، وحبس الأموال يحدث أزمات ومثله إطلاقها بغير حساب. والإسلام وهو ينظم هذا الجانب من الحياة يبدأ به من نفس الفرد، فيجعل الاعتدال سمة من سمات الإيمان: -وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً-»[5]
تلاحظون أنّ الإسلام لا يستثنى الإنفاق- وهو أعلى القيم الدينية- من هذه القاعدة العامة، فيلزم أن تتصدّر جميع ساحات الدين.

٤-المسرفون خارجون عن دائرة الهداية الإلهية. قال سبحانه:

«إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ»[6]

«كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ»[7]

٥-الإسراف مصدر المعاصى والقبائح

التأمل فى ما ذكرنا يبيّن أن الإفراط والخروج عن الوسط يسبّب سائر المعاصى والرذائل. والقرآن يؤكد على هذه الحقيقة:

«قُلْ يا عِبادِيَ الَّذينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّه»[8]

---

[1] -الميزان فى تفسير القرآن، ج٥، ص٢٧٠

[2] -سورة الاعراف، ٣١

[3] -كلينى، محمد بن يعقوب، الكافى، ج٤، ص٥٦

[4] -سورة فرقان، ٦٧

[5] -فى ظلال القرآن، ج٥، ص ٢٥٧٩

[6] -سورة غافر، ٢٨

[7] -سورة غافر، ٣٤

[8] سورة زمر، ٥٣

يقول العلامة الطباطبايى فى تبيين الآية:

«و قوله: «الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ» الإسراف تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر، وكان الفعل مضمناً معنى الجناية أو ما يقرب منها ولذا عدي بعلى، والإسراف على النفس هو التعدي عليها باقتراف الذنب أعم من الشرك وسائر الذنوب الكبيرة والصغيرة على ما يعطيه السياق.»[1]

من جانب آخر نشاهد أنّ القرآن عندما يشير إلى حياة فرعون- وهو مجمع الرذائل والسيئات- يسمه بسمتين: العلو فى الأرض والإسراف.

«وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ»[2]

ومن هنا عدّ الخروج عن حدود الاعتدال من سمات الجاهل. يقول الإمام على(ع):
« لَا تَرَى الْجَاهِلَ إِلَّا مُفْرِطاً أَوْ مُفَرِّطاً» [3]
وهذا هو الموجب لاستغفار أهل الإيمان من جميع أنواع الإسراف، كما حكى الله تعالى عنهم:

«وَ ما كانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ إِسْرافَنا في أَمْرِنا»[4]

٦-النهى عن تبعية المسرفين

«وَ لا تُطيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُون»[5]

وفى وصف المسرفين بالإفساد فى الأرض إشارة إلى علة الحكم الحقيقية؛ وذلك أن الكون على ما بين أجزائه من التضاد والتزاحم مؤلف تأليفاً خاصاً يتلاءم معه أجزاؤه بعضها مع بعض في النتائج والآثار، ثم الفرد من الإنسان بما له من القوى والأدوات المختلفة المتضادة مفطور على تعديل أفعاله وأعماله بحيث تنال كل قوة من قواه حظها المقدر لها وقد جهز بعقل يميز بين الخير والشر ويعطي كل ذي حق حقه. فالكون يسير بالنظام الجاري فيه إلى غايات صالحة مقصودة وهو بما بين أجزائه من الارتباط التام يخط لكل من أجزائه سبيلاً خاصاً يسير فيها بأعمال خاصة من غير أن يميل عن حاق وسطها إلى يمين أو يسار أو ينحرف بإفراط أو تفريط، فإن في الميل والانحراف إفساداً للنظام المرسوم، ويتبعه إفساد غايته وغاية الكل، ومن الضروري أن خروج بعض الأجزاء عن خطه المخطوط له وإفساد النظم المفروض له ولغيره يستعقب منازعة بقية الأجزاء له، فإن استطاعت أن تقيمه وترده إلى وسط الاعتدال فهو وإلا أفنته وعفت آثاره حفظاً لصلاح الكون واستبقاء لقوامه.[6]

٧- إخوان الشياطين

«وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَ الْمِسْكينَ وَابْنَ السَّبيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذيراً إِنَّ الْمُبَذِّرينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطينِ وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً»[7]

يقول مؤلف مجمع البحرين فى بيان الآية:

«قوله تعالى: - إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ- هو من التبذير في النفقة والإسراف فيها و تفريقها في غير ما أحل الله تعالى، وقد فرق بين التبذير والإسراف في أن التبذير الإنفاق فيما لا ينبغي، والإسراف الصرف زيادة على ما ينبغي، والأخوة هنا للمشاكلة.»[8]

٨-أمّة الإسلام، أمّة الوسطيّة.

---

[1] -الميزان فى تفسير القرآن، ج١٧، ص٢٧٩

[2] -سورة يونس، ٨٣

[3] -نهج البلاغه، حكمت ٧٠

[4] -سورة آل عمران، ١٤٧

[5] -سورة شعرا، ١٥١-١٥٢

[6] -الميزان فى تفسير القرآن، ج١٥، ص٣٠٦

[7] -سورة اسراء، ٢٦-٢٧

[8] -طريحى، فخرالدين، مجمع البحرين، ج٣، ص٢١٧

«وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً»[1]

نتابع بيان وسطية الإسلام بعبارة من السيد قطب، حيث يقول:

«إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً، فتقيم بينهم العدل والقسط وتضع لهم الموازين والقيم وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد وتزن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها، وتقول: هذا حق منها وهذا باطل. لا التي تتلقّى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها. وهي شهيدة على الناس، وفي مقام الحكم العدل بينهم ... وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحسن و الفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال و القصد، أو من الوسط بمعناه المادي الحسي.»[2]

الثانى: نظرة إلى تعاليم الإسلام

التّأمّل فى تعاليم الإسلام تبيّن بوضوح أنّ الركيزة فيها هى القصد والعدل وأن لاعلاقة بينها وبين جانبى الإفراط والتفريط. والآن نحاول تقديم نماذج من تعاليم الإسلام لإيضاح هذه الحقيقة.

١-الوسطية فى التكليف ونفى التكليف فوق الطاعة وكذا العسر والحرج منه. قال سبحانه:

«لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها»[3]

«ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ»[4]

«يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ»[5]

يقول مؤلف تفسير الأمثل فى هذا المجال:

«(الوسع) لغة تعني القدرة والإستيعاب، وعليه فإنّ الآية تؤيّد الحقيقة المنطقيّة القائلة أنّ التكاليف والفرائض الإلهيّة لاتتجاوز طاقة الأفراد إطلاقا، لذلك يمكن القول بأنّ كلّ الأحكام يمكن تقييدها وتفسيرها بهذه الآية حيث تتحدّد في إطار قدرة الإنسان، و من البديهي أنّ المشرّع الحكيم والعادل لا يمكن أن يضع قانوناً على نحو آخر. كما أنّ الآية تؤكّد أنّ الأحكام الشرعيّة لا تنفصل أبداً عن أحكام العقل والحكمة، بل هي مواكبة معها في كلّ المراحل.»[6]

٢-الاعتدال فى تعامل الإنسان بالدنيا والآخرة

الإسلام ينظر إلى الدنيا والآخرة بنظرة عينية تطابق الواقع والحقيقة. فلا هو يحصر الحياة فى الدنيا ويغفل عن الآخرة كما هو دأب من لايؤمن بالآخرة.

«فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَياةَ الدُّنْيا ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ»[7]

ولا هو يدعو إلى الرهبانية ورفض الدنيا رفضاً كاملاً كما فعل بعض النصارى. والقرآن يعتبر هذا الأمر بدعة ابتدعوها لا حكماً نازلاً من عندالله سبحانه.

فسبيل الإسلام هو الطريق المستقيم وهو الطريق الوسط. فهو يعطى كلّاً من الدنيا والآخرة ما لهما بلا إفراط وتفريط. فالدنيا فى إيدئولوجية الإسلام تعتبر طريقاً وسبيلاً إلى الآخرة ولا يصحّ فصلها عنها لأنّها لا غاية لها إلا الآخرة. فالغور فى الدنيا ونسيان الآخرة يعنى الاشتغال بالطريق ونسيان الغاية والهدف وهو يؤدّى إلى الهلاك والبوار.

٣-الاعتدال فى الخوف و الرجاء

يقول الإمام الصادق(ع):

«كَانَ أَبِي يَقُولُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا [وَ] فِي قَلْبِهِ نُورَانِ نُورُ خِيفَةٍ وَ نُورُ رَجَاءٍ لَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا وَ لَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا»[8]

يقول العلامة الطباطبايى فى تفسير الآية ٥٦ سورة الأعراف:

«العبادة عن محض الخوف ربما ساق الإنسان إلى اليأس والقنوط فدعاه إلى ترك العبادة، وقد شوهد ذلك كثيرا، و العبادة عن محض الطمع ربما قاد إلى استرسال الوقاحة وزوال زي العبودية فدعاه إلى ترك العبادة، وقد شوهد

---

[1] –سورة بقره، ١٤٣

[2] – فى ظلال القرآن، ج١، ص: ١٣٢

[3] –سورة بقره، ٢٨٦

[4] –سورة مائده، ٦

[5] –سورة بقره، ١٨٥

[6] –مكارم الشيرازى، ناصر، التفسير الأمثل، ج٢، ص٣٦٧

[7] –سورة نجم، ٢٩–٣٠

[8] –الكافى، ج٢، ص٦٨

أيضا كثيراً، فجمع سبحانه بينهما ودعا إلى الدعاء باستعمالهما معا فقال: «وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً» ليصلح كل من الصفتين ما يمكن أن تفسده الأخرى، وفي ذلك وقوع في مجرى الناموس العام الجاري في العالم أعني ناموس الجذب والدفع. وقد سمى الله سبحانه هذا الاعتدال في العبادة والتجنب عن إفساد الأرض بعد إصلاحها إحساناً»[1]

٤-الاعتدال فى الفرح والحزن والرخاء والشدّة

إنّ من خصائص أغلبية الناس، افتقاد التوازن النفسى والروحى عند ما يصيبهم من الشدة والرخاء؛ بمعنى أنّ الإنسان عندما يُنعّم، يفرح ويمرح ويختال وعندما يفوته شيئ من الدنيا، يحزن وييأس ويسىء الظن بالله تعالى. وهذا من أكبر المخاطر التى تهدد سعادة الإنسان. فالقرآن يشير إلى هذه الحقيقة فى نفس الإنسان ثم يعالجها بتنبيهه بذكر الله تعالى الذى بيده أزمة الأمور كلها وأنّه لايعطى ولايأخذ إلّا لحكمة تقتضيهما:

«ما أَصابَ مِنْ مُصيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا في أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ في كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسيرٌ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُم»[2]

وقال:

«إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلّا المُصَلّين»[3]

فلاينبغى أن ييأس ويجزع عند الابتلاء ولا أن يمرح ويمنع عندما أوتى متاع الدنيا، فالطريق الوسط هو التوازن الروحى واطمئنان النفس الحاصلان من الإيمان بالله تعالى. يقول الإمام على (ع) عندما يصف المتّقين:

« نُزّلَت أنفُسُهُم مِنهُم فِى البَلاء كَالّتى نُزّلَت فِى الرّخاء»[4]

ويقول(ع) كذلك:

« فى المَكارِهِ صَبورٌ وَفى الرّخاء شَكورٌ»[5]

٥-الاعتدال فى التعاطى مع الآخرين

قال الله سبحانه:

«لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطينَ»[6]

وفى موضع آخر:

«يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامينَ لِلَّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى»[7]

فالإسلام لا يهدف فى تشريعاته إلّا إلى الهداية الأكثرية لجميع الناس ولا يؤثر العداء والبغضاء والشنآن أن يخرج من حدود العدل والإنصاف والقسط، بل يأمر دائماً بالسير فى حدود العدل والإنصاف مع الجميع حتى من كفر أو أظهر العداء لنا. هكذا يصف الإمام على(ع) أهل التقوى حين يقول:

« لايَحيفُ عَلى مَن يُبغِضُ وَلايَأثَمُ فيمَن يُحِبّ»[8]

وهناك نماذج أخرى مما يبيّن اعتدال الإسلام ووسطيّته بمعنى الكلمة ونكتفى بهذا القدر، فإنّه واف لما قصدناه فى هذه المقالة.

حصيلة البحث

هذه نماذج يسيرة من منظومة التعاليم الدينية المبتنية على الاعتدال الشامل واستيفاء المسألة يتطلب مجالاً واسعاً خارجاً عن حدود هذه المقالة.

فتبين من جميع ما ذكرنا أن الاعتدال حاكم على جميع المعارف الإسلامية. وكما أن الإسلام بنى جميع تعاليمه على الاعتدال الشامل، يأمر الإنسان أيضاً بالسير على هذا النهج المستقيم بلا اعتداء وتعدّ.

---

[1] -الميزان فى تفسير القرآن، ج٨، ص١٦٠

[2] -سورة حديد، ٢٢-٢٣

[3] -سورة معارج، ١٩-٢٠-٢١

[4] -نهج البلاغه، خ١٩٣

[5] -نفس المصدر

[6] -سورة ممتحنه، ٨

[7] -سورة مائده، ٨

[8] -نهج البلاغه، خ١٩٣

سؤال:

هل ظاهرة الجهاد والحدود و... ممّا هى من تشريعات الإسلام، من تجليات التطرف والإفراط فى الإسلام؟

الإجابة:

لايصح، فصل جزء من مجموعة السنن الدينية والنظرة الأُحادية البعد إليه ثم الحكم عليه بالتطرف والتشدد، بل يلزم أن ننظر إلى كل جزء، فى المنظومة الدينية المشتملة على الأجزاء الموصولة بعضها بالبعض. فلابد من ملاحظة علاقة هذا الجزء بساير الأجزاء وكذا المصالح والغايات المترتبة عليه، ثم الحكم عليه بما ينبغى.
نذكر كمثال مسألة الجهاد الذى حثّ عليه القرآن بكلّ اهتمام. وهو أكثر ما يضع الإسلام فى موضع الاتهام بالعنف والتطرف و... وقد يطلق عليه الإرهاب الدينى.
التأمل فى الموضوع يبين لنا أنّ الجهاد الذى يدعو إليه الإسلام، من أعلى تعاليمه منزلة وأكثرها فائدة. سنرى أنه يختلف اختلافاً جذرياً من الحروب التى أحدثها الإنسان طيلة الزمان بين القبائل والشعوب والبلدان. نرى إنه لا علاقة بين الجهاد الإسلامى وبين الاعتداء والتعدى وسفك الدماء والهيمنة على الآخرين وما شابه ذالك. وهذه الأمور نشاهدها بكثافة فى النزاعات والحروب. فمن هذا المنطلق لا نرى الإسلام يأمر بالاعتداء وسفك الدماء وإبادة الآخرين وإهلاك الحرث والنسل أبداً. فكيف يتهم هذا الدين بالعنف والتطرف واللاأخلاقية و...؟ نعم فيما يتوقف استيفاء حق للإنسانية على القتال، أذن فيه بشروطه وفى إطار المعايير الإنسانية والدينية ولا يسمح لأحد تعدى هذه الأطر إطلاقاً.
قال السيد بن قطب فى تبيين الجهاد فى الإسلام:

« لقد جاءت هذه العقيدة في صورتها الأخيرة التي جاء بها الإسلام لتكون قاعدة للحياة البشرية في الأرض من بعدها، و لتكون منهجاً عاماً للبشرية جميعها و لتقوم الأمة المسلمة بقيادة البشرية في طريق الله وفق هذا المنهج. و من ثم كان من حق البشرية أن تبلغ إليها الدعوة إلى هذا المنهج الإلهي الشامل، و ألا تقف عقبة أو سلطة في وجه التبليغ بأي حال من الأحوال. ثم كان من حق البشرية كذلك أن يترك الناس بعد وصول الدعوة إليهم أحراراً في اعتناق هذا الدين لا تصدهم عن اعتناقه عقبة أو سلطة. فإذا أبى فريق منهم أن يعتنقه بعد البيان، لم يكن له أن يصد الدعوة عن المضي في طريقها. وكان عليه أن يعطي من العهود ما يكفل لها الحرية والاطمئنان وما يضمن للجماعة المسلمة المضي في طريق التبليغ بلا عدوان ... فإذا اعتنقها من هداهم الله إليها كان من حقهم ألا يفتنوا عنها بأي وسيلة من وسائل الفتنة. لا بالأذى ولا بالإغراء. ولا بإقامة أوضاع من شأنها صد الناس عن الهدى وتعويقهم عن الاستجابة. وكان من واجب الجماعة المسلمة أن تدفع عنهم بالقوة من يتعرض لهم بالأذى والفتنة. ضماناً لحرية العقيدة، ... وينشأ عن تلك الحقوق الثلاثة واجب آخر على الجماعة المسلمة وهو أن تحطم كل قوة تعترض طريق الدعوة وإبلاغها للناس في حرية، أو تهدد حرية اعتناق العقيدة وتفتن الناس عنها. وأن تظل تجاهد حتى تصبح الفتنة للمؤمنين بالله غير ممكنة لقوة في الأرض، ويكون الدين لله .. لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان ولكن بمعنى استعلاء دين الله في الأرض، بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدخول ولا يخاف قوة في الأرض تصده عن دين الله أن يبلغه، وأن يستجيب له، وأن يبقى عليه. وبحيث لا يكون في الأرض وضع أو نظام يحجب نور الله وهداه عن أهله ويضلهم عن سبيل الله. بأية وسيلة وبأية أداة. وفي حدود هذه المبادئ العامة كان الجهاد في الإسلام.»[1]

ونحكى عبارة عنه فى بيان الحدود التى تنفّذ عند الجريمة فى المجتمع الإسلامى:

« والمجتمع المسلم يقيم حياته كلها على منهج الله وشريعته وينظم شؤونه وارتباطاته وعلاقاته على أسس ذلك المنهج وعلى أحكام هذه الشريعة .. ومن ثم يكفل لكل فرد- كما يكفل للجماعة- كل عناصر العدالة والكفاية والاستقرار والطمأنينة، ويكف عنه كل عوامل الاستفزاز والإثارة، وكل عوامل الكبت والقمع، وكل عوامل الظلم والاعتداء، وكل عوامل الحاجة والضرورة. وكذلك يصبح الاعتداء- في مثل هذا المجتمع الفاضل العادل المتوازن المتكافل- على النفس والحياة، أو على النظام العام، أو على الملكية الفردية جريمة بشعة منكرة، مجردة عن البواعث المبررة- أو المخففة- بصفة عامة .. وهذا يفسر التشدد ضد الجريمة والمجرمين بعد تهيئة الظروف المساعدة على الاستقامة عند الأسوياء من الناس وتنحية البواعث على الجريمة من حياة الفرد وحياة الجماعة .. و إلى جانب هذا كله، ومع هذا كله يكفل النظام الإسلامي للمجرم المعتدي كل الضمانات لسلامة التحقيق والحكم ويدرأ عنه الحدود بالشبهات ويفتح له كذلك باب التوبة التي تسقط الجريمة في حساب الدنيا في بعض الحالات، وتسقطها في حساب الآخرة في كل الحالات.»[2]

---

[1] -فى ظلال القرآن، ج١، ص١٨٦

[2] -فى ظلال القرآن، ج٢، ص٨٧٣

فلايقصد تنفيذ الحدود فى المجتمع إلّا إلى قرار المجتمع وأمنه وإعداده لينال الكلّ إلى ما يستحقّه من كمالات مادية أو روحيّة.

فالجهاد الإسلامى والحدود الإسلاميّة تختلف جذريّاً عن غيرها من الحروب والنزاعات أو القوانين التى نشأت من الفكر الإنسانى القاصر. فهى رحمة عامة للمجتمعات الإنسانيّة عند ملاحظة جميع آثارها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر

١ـالقرآن الكريم

٢ـنهج البلاغه

٣ـسيد بن قطب بن ابراهيم، فى ظلال القرآن، نشر دارالشرق، بيروت-القاهره، ١٤١٢ق

٤ـشيخ الحر العاملى، وسائل الشيعة، نشر مؤسسة آل البيت، قم، ١٤٠٩ق

٥ـطريحى، فخر الدين، مجمع البحرين، نشر مرتضوى، تهران، ١٣٧٥ش

٦ـطباطبايى، محمد حسين، الميزان فى تفسير القرآن، ت سيد محمد باقر الموسوى الهمدانى، نشر جماعة المدرسين الحوزة العلمية قم، ١٣٧٤ش

٧ـفيض كاشانى، ملا محسن، نشر مكتب الإعلام الإسلامى، قم، ١٤١٨ق

٨ـكلينى، محمد بن يعقوب، نشر دار الكتب الاسلامية، تهران، ١٣٦٥ش

٩ـمكارم شيرازى، ناصر، تفسير الأمثل، نشر دار الكتب الاسلامية، تهران، ١٣٧٤ش